مجلة دراسات معاصرة؛ دورية دولية نصف سنوية محكّمة تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة المركز الجامعي تيسمسيلت الجزائر

تاريخ الإرسال: **17** مارس **2018** تاريخ القبول: **30** نوفمبر **2018** تاريخ النشر: **02** جانفي **2019**

صِفات الحُروف بين النُّحاة والبلاغيّين

Character traits between the grammarians and the Bulgarians

الباحث: بوشيبة حبيب
إشراف الدكتور: بولعشار مرسلي
المركز الجامعي تيسمسيلت
الجزائر
bouchibahabib8@gmail.com

الملخص:

يهدفُ هذا البحث إلى الوقوفِ على عمل علماء الصَّوت وجهودهم الجبارةِ في التأصيل للدرس الصوتي العربي، وتَلمُّساتهم لأسراره من خلال وقوفهم على باب الصِّفات على وجه الخصوص، كالجهر والهمس والشدة والرخاوة وغيرها، وذلك انطلاقا من المرتكزات التي أرسى دعائمها الخليل بن أحمد الفراهيدي 175هـ، وسيبويه 180هـ، وابن جنّي 392هـ، ثم نعرّج على عمل البَلاغِيين وطريقةِ تعامُلِهم مع صِفَات الحروف، وكيف استعملوها في سبر أغوار ظواهر الكلام من فصاحةٍ وبلاغةٍ وبيانٍ، بُغية الوُصول إلى نسقٍ تلفُّظي تواصلي سليمٍ، وهذا يَنمُّ عن مدى الزّخمِ الفكري والعلمي الذي اتَّسم به اللسان العربي.

الكلمات المفتاحية :صفات الأصوات اللغوية، الفصاحة، البلاغة، الإذلاق، الإصمات، الدّراسة الصوتية.

Abstract:

The present study aims to shed light on phonologists great efforts in rooting Arabic phonological study, by analyzing sound characteristics in particular like audibility, whispering, strength, weakness… etc. starting from the achievements of El-Khalil Ben Ahmed El FARAHIDI 175A.H, Sibawayhi 180 A.H and Ibn Jinni 392A.H, then it will take into consideration the work of rhetoricians and their method to deal with letters characteristics, and how they used them in exploring secrets of speech phenomena such as eloquence and rhetoric, to establish a coherent communicative articulation, which reflects the extent of scientific and intellectual abundance of Arabic language.

***Key words**: characteristics of linguistic sounds, eloquence and rhetoric, fluency and friction, sound studie*

توطـــئة:

ممَّا لاشكَّ فيه أَن الدّراسة الصَّوتية قد حظِيت عبر الحِقَب التَّاريخية، بِعنايةٍ فائقةٍ لدى الدارسين والباحثين، ولم يكن التراث العربي بمنأى عن هذا اللون من الدراسة، فقد كانت أُولى إرهاصات التَّكشف وخوض غمار وحيثيات البحث الصوتي مع الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه، ومَن حذا حذوهما من النُّحاة والبلاغيين، بعد المُرتكزات التي وضعها أبو الأسود الدؤلي بإيعازٍ من علي بن أبي طالبٍ بعد ظُهور غائلة اللَّحن في اللسان العربي، وذلك خوفاً من وُصوله إلى القرآن الكريم؛ فكانت أُولى ملامح الدّراسة الصّوتية العربية مُتمظهرةً في المخارج ثم في صفات الأصوات العربية التي شهدت عنايةً منقطعة النظير، لتشهد بعد ذلك عملية التعرض لصفات الحروف تشظٍّ وتوسُّع عند النّحاة ثم البلاغيين، كان هدفها التقعيد والتثبيت لإرساء آلياتٍ من شأنها سبرُ أغوار الظاهرة الصوتية عند العرب.

صفات الحروف عند النحاة :

إن التَّعرض للدّراسة الصّوتية سواءٌ عند النّحاة أو البلاغيين ترتهن إلى التّعرض إلى المخارج والصفات؛ إلا أنَّ قدم السبق في وضع معالم الدراسة الصوتية تعود إلى النُّحاة بالدرجة الأولى، ويُعدُّ الخليل بن أحمد الفراهيدي الأساس في إرساء هذه الدراسة الصوتية.

1-**الخليل بن أحمد الفراهيدي(175ه):** لقد أرسى الخليل بن أحمد الفراهيدي *البذور* الجنينية لهذا اللون من الدراسة بتكشُّفه عن المخارج، حين كان يهدف إلى وضع معجم للّغة العربية على غرار معاجم الحضارات الأخرى، حيث استهلَّ ترتيبه للمخارج بأعمق تلك الحروف وأبعدها مخرجا وهو العين.

ووفقاً لثنائية العمق والبعد للمخرج تدرّج في التّرتيب إلى أن وصل إلى الحروف الشّفوية وهي (الفاء والباء والميم)، ثم الحروف الجوفية أو الهوائية وهي حروف المد(الواو والألف والياء) إذ يقول:"فأقصى الحروف كلّها العين ثم الحاء ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين، ثم الهاء ولولا هتّةٌ في الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرجها من الحاء، فهذه ثلاثة أحرف من حيّز واحد بعضها أرفع من بعض، ثم الخاء والغين في حيّز واحد كلّهن حلقية، ثم القاف والكاف لهويتان، والكاف أرفع، ثم الجيم والشين والضاد في حيّز واحد، ثم الصّاد والسّين والزّاي في حيّز واحد، ثم الطّاء والدّال والتّاء في حيّز واحد، ثم الظّاء والذّال والثّاء في حيّز واحد ثم الرّاء واللاّم والنّون في حيّز واحد، ثم الفاء والباء والميم في حيز واحد، ثم الألف والواو والياء في حيز واحد ،والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز تنسب إليه"[1].

وقد كان هدف الخليل وضع سياجٍ للّسان العربي بُغية تحصينه من الدَّخيل، حيث عمدَ إلى نظام التّقليبات لمعرفة المُستعمَل في العربية من المهمل، وتظهر فائدة وثمرة عمل الخليل في احتواء معجمه على أصول العربية الفصيحة الخالية من الغريب المستهجن مما كان عليه عصر الخليل آنذاك، وما يمكن قوله بأن بداية الدرس اللغوي مع أبي الأسود كانت لدفع اللحن، أمّا عمل الخليل ومَن جاء بعده فكان يهدف إلى تنظيم النطق ومعرفة آلياته.

وعلى هذا الأساس، فإذا كانت مساحة الدرس الصوتي مع أبي الأسود الدؤلي قد انحصرت ضمن الحدود التّمهيدية بغرض تنقيط المصحف العثماني وفقا للهيئة الفيزيولوجية التي تظهر بها الشفتان بقوله: "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنة، فاجعل مكان النقطة نقطتين"[2]، فإنَّ مساهمة الخليل تُعدُّ بحقٍ فاتحة التأسيس ومحور التأصيل لحقل الصّوتيات العربية التّراثية والذي تمثّل في معجم العين، ممّا جعله يحوز الأسبقية المنهجية في ترتيب معجمه، وأكسبه أسبقيةً تاريخيةً في حسن التدوين وجمال التأصيل، حيث جعل من الحروف العربية قسمين: الأصوات الصّحاح، والأصوات الهوائية فكان يرى بأن "في العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحياز ومدارج وأربعة أحرف جوف وهي الواو والألف اللينة والهمزة، وسميت جوفا لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدارج اللّهاة، إنما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيّز تنسب إليه إلا الجوف"[3].

وعلى هذا التقسيم حذا من جاء بعد الخليل من النُّحاة فكان لا مناص لهم من الاستكانة إلى رؤيته، باستثناء بعض التفصيلات والنظرات التجزيئية للمخارج، فكان عملهم تثبيتا وتقعيدا لما جاء به، بغضِّ النظر عن بعض الزيادات الثانوية كالشواهد من القرآن والشّعر والحديث النبوي، أو عزوِ الشّواهد الخليلية إلى أصحابها.

2-**سيبويه(180ه)*:** يُعدُّ سيبويه الرافد المرجعي بعد الخليل في الوقوف على كنه المستوى الأول للظاهرة اللغوية العربية في مهدها، ونظرا لأن "الأصول تُراعى ويحافظ عليها"[4]، فإن سيبويه- وبروح الوثوقية التي كانت تكتنفه في أستاذه الخليل- لم يزد عن عمل أستاذه في نظرته للمخارج، غير أن قام بعملية تجزيئيةٍ للأحياز الخليلية فتوصل إلى ستة عشر مخرجا؛ أمّا ما يُلمح صداه عند سيبويه فضلا عن نظرته التدقيقية في المخارج، وُلوجُه وارتقاؤه إلى الكلام عن الصِّفات المتعلقة بالأصوات، بعد أن اهتدى إلى أن الحروف العربية أصول وفروع، فبيَّن بأنَّ " أصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا"[5]، ثم انتقل للحديث عن الفروع وهي ما دون التسع والعشرين المذكورة فقال:"وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هنَّ فروع وأصلها من التسعة والعشرين وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعاروهي:النّون الخفيفة والهمزة التي بين بين ،والألف التي تمال إمالة شديدة، والشّين التي كالجيم، والصّاد التي تكون كالزّاي، وألف التفخيم يعني بلغة أهل الحجاز في قولهم الصلاة والزكاة والحياة"[6]، حيث جعل هذه الصفات التي تثبت نطقا لا كتابة معيارا لإضفاء الجمالية في القرآن وهي صفات أو ألفونات تستسيغها الأذن، ويروق سمعها، ولا يَمُجُّ قارئها بخلاف المستهجنة، ولعل سيبويه كان يقوم بعملية استقراء وتنقيب من القرآن والحديث والشعر، فضلا عن الأخذ من أصول القبائل العربية التي لم يتغوّر لسانها غورا فاحشا كقريش وتميم وأسد وكنانة، الذين كانوا يُعَدُّ لسانهم عرفا لغويا لدى القبائل العربية الأخرى .

وبناءً على المعايير اللغوية قابل سيبويه الصّفات المستحسنة بصفات غير مستحسنة وهي: "الكاف التي بين

الكاف والجيم، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصّاد التي كالسّين، والطّاء التي كالتّاء، والظّاء التي كالثّاء، والباء التي كالفاء"[7].

وما يمكن قوله عن عمل سيبويه أنه شابه وساير أستاذه الخليل في الدراسة الصوتية من حيث المخارج، واستدرك ما فاته-الخليل- في عدم ذكره للصفات، حيث اعتمد سيبويه في تقسيمه لصفات الحروف بالاتِّكاء على قوة اندفاع النفس أو ضعفه، وقَسّم صفات الحروف إلى ثلاثة أقسام هي:

صفات عامة: تتمثل في الجهر والهمس، الشدة الرخاوة والتوسط.

صفات خاصة: تتمثل في الإطباق والانفتاح،اللين، المد، الاستطالة، التفشي، الصفير والغنة.

صفات مفردة : تتميز بها أصوات مفردة كالانحراف والتكرير.

أهم صفات الحروف المعتمدة عند سيبويه في التفريق بين الأصوات:

1-**الجهر والهمس:** تعدُّ هاتين الصّفتين من الأسُس التي ارتكز عليها سيبويه في معرفة صفات الحروف الأساسية، حيث عرَّف الجهر بأنه "حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتي ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت"[8]، وعرف المهموسَ بقوله:"وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه "[9]، وحروف الهمس ماجُمع في قولهم(فحثه شخص سكت) وما عداها فهو مجهور.

2-الأصوات الشّديدة والرّخوة والمتوسّطة:

هذا التصنيف للأصوات عند النحاة قائم على حالة مرور الهواء أثناء النطق بالصّوت، فقد يعترضه عوائقُ تمنع خروجه منعًا تامًا أوجزئيًا أو يصيبه انحراف، فيخرج من جانبي الفم أو الأنف، وعلى هذا الأساس عرّف سيبويه الحرف الشديد بأنه:" الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، وهو الهمزة والقاف والكاف، والجيم والطاء والتاء، والدال، والباء وذلك أنك لو قلت ألْحَجَ، ثم مددت صوتك لم يجر ذلك"[10].

وقد هيمن سيبويه بتقسيمه هذا للحروف فلم يكن لابن جني بدّ من اقتفاء أثره في تقسيم الحروف إلى شديدة ورخوة ومتوسطة، فقال"وللحروف انقسام آخر إلى الشِّدة والرّخاوة وما بينهما، فالشديدة ثمانية أحرف، وهي: الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والدال والتاء والياء، ويجمعها في اللفظ (أجدت طبقك) أو (أجدك طبقت)، والحروف التي بين الشديدة والرخوة ثمانية أيضًا وهي الألف والعين والياء واللام والنون والراء والميم والواو، ويجمعها في اللفظ لم يرو عنّا... وما سوى هذه الحروف والتي قبلها هي الرخوة"[11]، وصورة الصوت الشديد وصفته عند ابن جني فهو"الذي يمنع الصوت من أن يجري فيه، ألا ترى أنك لو قلت:الحق والشط، ثم رمت مدّ صوتك في القاف والطاء لكان ذلك ممتنعًا"[12].

3- **الإطباق والانفتاح**: وهي من الصّفات التي اهتدى إليها النحويون وعملوا على التكشف عنها، وحروف الإطباق هي: الصاد، الضاد، الطاء، الظاء؛ وسميت بالمطبقة لأن " الإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له، ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس من موضعها شئ غيرها تزول الضاد إذا عدمت الإطباق إليه"[13]، أما المنفتحة، فهي "كل ماسوى ذلك من الحروف؛ لأنّك لا تطبقُ لشئ منهن لسانك، ترفعه إلى الحنك الأعلى"[14].

4- **الاستعلاء والاستفال**: وهما من الصِّفات المتضادة أيضا، ولا شك أن الفعل الحقيقي في نشوء التضاد بين الصّفات المتضادة عموما هو حركة اللسان، وقد تعرَّض سيبويه للحديث عن الاستعلاء في معرض حديثه عن الإمالة، حين بيَّن ما يَمتنِع من الإمالة من الألِفات بقوله:"فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة: الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، الغين، القاف، الخاء إذا كان حرف منها قبل الألف والألف تليه"[15].

وعرَّفه ابن جني بقوله:" ومعنى الاستعلاء أن تتصعَّد في الحنك الأعلى، فأربعة منها فيها مع استعلائها إطباق، وقد ذكرناها، وأما الخاء والغين والقاف فلا إطباق فيها مع استعلائها"[16]؛ أمّا الاستفال فقد وصف النحاةُ الأصوات المُستفِلة بأنها ماعدا الأصوات المستعلية المذكورة، وعملية النُّطق بها تكون خلاف الأولى، وذلك لنزول مؤخرة اللسان إلى قاع الفم، وسمّى ابن جني الاستفال بالانخفاض وبيّن حروفه بأنها ما سوى حروف الاستعلاء[17].

وعلى هذا الأساس، فحُروف الاستفال هي اثنان وعشرون حرفاً: الهمزة، الألف، الهاء، العين، الحاء، الكاف، الجيم، الشين، الياء، السين، الزاي، الدال، التاء، الثاء، الذال، الراء، اللام، النون، الفاء، الباء، الميم، الواو.

وقد بيّن سيبويه إحكام النّطق عند العرب من مُنطلق صفتي الاستعلاء والاستفال، أو النّسفُّل كما سمّاه سيبويه، أوالانحدار كما أسماه ابن جنّي، وذلك بعدم الجمع بين الصّفتين في آن واحدٍ بُغية تجنب الاستثقال في الكلام[18].

5-التفخيم والترقيق

لم يخصَّ سيبويه التفخيم والترقيق بذكر مباشر مثلما تحدّث عن الصِّفات الأخرى، وإنّما ذكره أيضا في معرض حديثه عن حروف الإطباق الصاد والضاد ثم الطاء الظاء، وبيّن أهمّيته

العُظمى في تِبيان ملامح الصّوت بعامل الإطباق، إذ يقول في هذا الصّدد: "لولا الإطباق لصارت الطاء دالا، والصاد سينا ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شيء من موضعها"[19]، حيث نلمحُ تفَطُّن سيبويه لتأثير هاتين الصفتين على حاسّة السمع.

كما تناول سيبويه هذه الظاهرة أيضا في معرض حديثه عن صوت الألف أثناء حديثه عن الفروع المستحسنة في. لغة أهل الحجاز، إذ قال: "وألف التفخيم، يعني بلغة أهل الحجاز، في قولهم الصّلاة، والزّكاة، والحياة"[20]، كما أشار إلى التفخيم ابن جنّي بقوله: "وأمّا ألف التفخيم، فهي التي تجدها بين الألف وبين الواو[21]؛ وما يمكن قولُه بأنّ هذا التنقيب من النّحاة عن هاتين الصفتين ظهرت معالمه بجلاءٍ مع القرّاء والمجوّدين

6- **التكرير**: وهي صفة ينمازُ بها صوت الرّاء، وهو" حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره "[22]، والراء إذا تكلّمتَ بها خرجت مضطربة، تتطلب جهدا من اللسان لضبطه عن كثرة الحركة، فهو صوت " إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتعثر بما فيه من التكرير"[23]؛ وممّا يلفت الانتباه تلك الميزة التي اتّسم بها حرف الراء، وهي عدم إذعانه للإدغام حتى مع حروف مجموعته الذّلقية على الرغم من تقاربهما في المخرج والصّفة، وذلك لما يتملّكُه حرف الرّاء من قوة التكرير، ف "الراء لا تُدغم لا في اللام ولا في النون، فهي مكررة، وهي تفشى إذا كان معها غيرها، فكرهوا أن يجحفوا بها فتدغم مع ليس مايتفشى في الفم مثلها ولا يتكرر"[24].

7- **الانحراف**: وهي صفة خاصة باللاّم، وقد وصفه سيبويه بقوله:"هو حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة وهو اللام"[25]، ويمكن الإشارة إلى أنّ سيبويه وصف صوت اللام بالشدة ولم يذكره في الحروف الشديدة، وقد أشار ابن عصفور أيضا إلى صفة اللام بقوله:"وتنقسمُ أيضا إلى منحرفٍ وغير منحرفٍ، فالمنحرف اللام، وما عداها ليس بمنحرفٍ"[26].

8-الصّفير والتّفشي والاستطالة

وهي من الصفات الثانوية التي تناولها سيبويه في باب الإدغام، حين تحدّث عن الإدغام وعِلَلِه، حيثُ بيّن صفة التفشي والاستطالة بقوله:"والشّين لا تُدغم في الجيم، لأن الشين استطال مخرجها لرخاوتها حتى اتصل بمخرج الطاء فصارت منزلتها منها نحوا من منزلة الفاء من الباءِ، فاجتمع هذا فيها والتفشّي"[27].

وقال في الاستطالة أيضا:" لا تُدغمُ في الصاد والسين والزّاي لاستطالتها يعني الضاد، كما امتنعت السّين، ولا تُدغم لصاد وأُختاها قبلها لما ذكرت لك"[28].أمّا صفة الصفير فقد أشار إليها سيبويه أثناء حديثه عن الإدغام أيضا، وبيّن بأنها تتميّز بِحُسن التّلقي لدى السّامع فقال:"وأمّا الصّاد والسّينُ والزاي فلا تدغمُهُنّ في هذه الحروف التي أدغمت فيهنّ، لأنّهنّ حروف الصّفير، وهنّ أندى في السمع"[29].

إنّ مايمكن قوله عن سيبويه أنّه توثب في دراسته عن منطلقات من سبقوه، والتي كانت ترمي إلى سدّ باب اللحن في اللسان العربي إلى إرساء نسق دراسي جديد، تمثل في تفعيل الدّراسة الصوتية في حدّ ذاتها انطلاقا من صفات الأصوات، أي أنه انتقل من الدراسة الوصفية التجريبية إلى الدراسة المعيارية التجريدية، فاكتملت عنده معالم الدراسة الصّوتية فيزيولوجيا وفيزيائيا، ولا سيّما في باب الإدغام، فكان عمله دِعامة ومرتكزا كبيرا " حتى أصبحت مادّته الصوتية التراث الأوحد للعلماء الذين جاءوا من بعده"[30].

وإذا أردنا أن نقف على بعض ملامح الدراسة الصوتية لسيبويه في نظرته للمفارقة بين صفات الحروف فإن ذلك يُستجلى على سبيل التمثيل في الصاد التي كالزاي وهو حرفٌ من الحروف المستحسنة عنده، حيث تنبّه سيبويه لأهمية هذه الظاهرة الصّوتية السّمعية، والتي يكون نطق الناطق فيها خارجا عن حدود إرادته، ونظرا لضبابية هذا الصوت الذي يعترض المُقومات التعريفية للصّوتين الصاد والزاي فقد انبرى سيبويه ومَن جاء بعده لِفَضِّ مغاليق هذه الصورة السّمعية الوسطية، والتي هي اقتناصٌ و مشاكلةٌ لصوتي الصّاد والزّاي في المخرج والصفة؛ ولم يكن سيبويه الوحيد المهتمّ بهذه الظاهرة الصوتية، فقد أسدى المبرد روعة وصفية لهذه الظاهرة بأنها اعتراض وتوسّطٌ وانتساب للصوتين معا بقوله: "إنه الحرف المعترض بين الزاي والصاد"[31].

لم يكن لهذه الظاهرة الصوتية التي نقّب عنها سيبويه صدى عند النحاة فقط، بل إنها احتضنت واكتست رعاية منقطعة النظير عند القراء والمُجودين أطلقوا عليها اسم الإشمام، وسَمَّوها الصاد المُشَمَّة، و هي التي تشم رائحة الزاي، "فالصاد المُشمةُ وهي التي بين الصاد والزاي فرع عن الصاد الخالصة وعن الزاي"[32].

وإذا تناولنا تقسيم سيبويه للحروف من وجهة نظر حداثية، فيمكن القول بأن ما ذهب إليه يُساوق ثنائية لسان/كلام، فقد جعل حروف العربية تسعة وعشرين حرفا يوافق اللسان، لأن اللسان يرتهن في دراسته إلى المكتوب والملموس، وأما المُستحسن والمُستَهجن عنده فكأنّه يوافق الكلام عند المحدثين، وهذا ملمح حسنٌ في تضمُّن التراث العربي للمقاطع فوق التركيبية، والتي حظِيت بعنايةٍ فائقة في الدراسة لدى المُحدثين.

3- **مستجدّات الطّرح الصّوتي عند ابن جنّي(392ه)*:** تتجلى ملامح الدّراسة الصّوتية عند ابن جنّي وفقا للملامح التنظيرية التي أفرزتها الدراسة الصّوتية لسيبويه، حيث اكتفى ابن جني بترديد مقولات سيبويه الفيزيولوجية؛ ولعل أهم استثمارٍ قام به ابن جني كان انطلاقته من باب الإدغام لسيبويه، حيث أخصبت هذه البذرة التي زرعها سيبويه في با ب الإدغام، فأينعت مع ابن جني في كتابه الخصائص حيث تعرض فيه لمختلف الظواهر الفونولوجية، فكان عمله طفرة صوتية في سياق الأطروحات الصّوتية التّراثية، حيث كان يهدف إلى البحث في علاقة الأصوات بالدلالة، ويُلمح ذلك في أربعة أبواب من هذا الكتاب وهي:

أ – باب تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني.

ب – باب الاشتقاق الأكبر.

ج – باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني.

د – باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني.

فعلى سبيل المثال يذكر ابنُ جنّي في باب مقابلة الألفاظ بما يُشاكل الأصوات ويصِفُه بأنه "باب عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدّره وأضعاف ما نستشعره"[33].

وعند تعرُّضه لمادة خَضَمَ وقَضَمَ، وبعملية استقرائية توصل إلى أن العرب يستعملون الخضم لأكل الرّطب، ويستعملون القضم لأكل الصّلب، ومما يشد الانتباه ويأخذ بالألباب اختيارُ العرب الخاء لرخاوتها وتوظيفها للدلالة الاستعمالية على حسب مقتضى الحال من أكل اللّين، وتوظيف القاف لصلابتها وقوّتها لتناول المادة الصّلبة، حيث توخّى ابن جني هذا الاستعمال عند العرب بأنهم " حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"[34]، كما يشير ابن جني الى أن مجرد التقارب في بعض الأصوات يكفي أحيانا للاشتراك في الدلالة نحو النضخ والنضح في قوله تعالى:"فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ"[35]، وهذا مطابق لحالة جريان الماء وتدفّقه، حيث نستشفّ الذّوق العربي الأصيل في الاتّكاء على صفات الأصوات للتّعبير عن مضامينها وأحوالها؛ فالتعبير القرآني المُستعملِ للخاء يقذف بالمستمع إلى الإحساس بشدة التدفّق والسّيلان، و بما أن الخاء أخت الحاء وقريبة منها فتقارب اللفظين لتقارب المعنيين، وكأنهم خصُّوا هذا المعنى بالخاء لأنها أقوى من الحاء وهذا المعنى أعظم في النفوس لدلالته على قدرة الخالق من توظيف النضح.

ومن ثَمَّ، فإن الإيحاءات الدّلالية التي انتهى إليها ابن جني في بحثه المتعلق بدلالة الأصوات يدفعنا إلى الإقرار بحسّهِ اللغوي الدقيق، وكيف أنه استطاع أن يُبيّن لنا مدى فاعلية العرب في استغلال صفات الحروف وتوظيفها وفق مقتضى الحال، فما يتطلّبُ شدة وقُوة يرهنونه بالحروف الفخمة الشديدة والمستعلية المطبقة، وما يُناسب رِقّة الحال والضُّعف أو الاضمحلال يُوظّفوا له ما يناسبه من الحروف المهموسة والضعيفة اللّينة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على حيوية هذا اللسان الذي ينبغي أن تُسبر أغواره لما يشتمل عليه من لطائف وأسرار.

ومن هنا فإن النُّحاة القدامى كان لهم قصبُ السّبق في وضع مرتكزات الدّراسة الصوتية، حتى صار عملهم السندَ المعول عليه، لأنّ عملهم قام على استقراءٍ يبلغ حد الدِّقة لكلام العرب، حتى توصّلوا إلى أن للحرف :اسما، وشكلا وطاقةً، بل إنهم ميزوا حتى بين المفاهيم في تلك العصور، ففرّقوا بين الحرف والصّوت في مُصطلحاتهم، فاتّسم عملهم بتحليل دقيق للأصوات يُضاهي ويطاول ماتوصل إليه اليوم علم الأصوات العام.

صفات الحروف عند البلاغيين

لم تكن دراسة الأصوات مقتصرة على النحاة فحسب؛ بل زاحمهم في ذلك البلاغيّون والمفسّرون الذين كانوا يبحثون في سرِّ الإعجاز القرآني، أمثال الخطّابي388ه، والرّماني386ه والجاحظ255ه، في كتابه البيان والتبيين، وابن سنان الخفّاجي 466ه في سر الفصاحة، وأبو هلال العسكري395ه في كتاب الصناعتين، وعبد القاهر الجرجاني471ه في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وغيرهم من البلاغيين، غير أن تناولهم للظواهر الصّوتية كان مفارقا لما ذهب إليه النّحاة من تعرضهم للصفات والمخارج؛ فقد انصبَّ بحثُهم عن فصاحة الكلمة وانسجام الحُروف عند تأليف الكلمة العربية للوقوف على فصاحتها، كما اهتمُّوا بالإيقاع الموسيقي، والتلاؤم والتنافر، ولا سيّما أنهم أدركوا أن ما يُخِلُّ بهذه الفصاحة من تنافر الحروف وعدم انسجامها ينعكسُ سلبا على العملية التواصلية عموما.

وقد كان شأنُ البلاغيين كالنُّحاة يهدف إلى المحافظة على اللّسان العربي من أن تشوبه شوائب التحريف؛ إذ كانوا يتعهّدون مَن تحت أيديهم من الدّارسين والكتاب بفائق التربية والتعليم والتوجيه، ولا سيّما إذا وجدوا منهم من قد تملّك ناصية الكتابة و تصاريف الكلام ووجوهَ استعماله، وتنبّه إلى جيّد الكلام و رديئه، و مقبوله و مردوده، فجهالُ الكلام عند أحفاد إسماعيل "يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخيُّر ألفاظه و إصابة معناه وجودة مطالعه، ولين مقاطعه واستواء تقاسيمه، وتعاد ل أطرافه، وتشابه أعجازه بهواديه، وموافقة مآخره لمبادئه،

حتى لا يكون له في الألفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه وجودة مقاطعه وحسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه وتراكيبه، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقا و بالتحفظ خليقا."[36]

ونظرا لما اكتسبه موضوع الدّراسة الصّوتية عند البلاغيين فقد ألّفُوا فيه كتبا ودواوين، فقد ذهب ابن سنان الخفاجي ت466هـ إلى التّعرض لصفات الحروف من منظور الفصاحة والبلاغة، وذلك بالتّكشُّف عن هذه الظواهر الصوتية انطلاقا من الصُّور البيانية والمُحسّنات البديعية، كما نوّهَ الجاحظ255ه في مقدمة كتابه البيان والتبيين إلى معرفة نَظْم الكلام ونقده وتبيان خصائصه ومعرفة جيّدِه من رديئه، وقد تطرق أيضا للحديث عن الفصاحة بنبذة من أحكام الأصوات والمخارج والصّفات والتّأليف؛ وممَّا يجب الوقوف عليه في عمل البلاغيين عند تعرضهم للدراسة الصّوتية اهتمامهم ببعض الظواهر الصوتية كظاهرتي التلاؤم والتنافر، والإذلاق والإصمات، وفاعلية هذه الظواهر في تصليب أرضية الفصاحة عند جمهور البلاغيين.

1- ظاهرة التلاؤم والتنافر عند البلاغيين:

تعدُّ هذه الظّاهرة من أهم الظّواهر المُتناولة لدى البلاغيين، وهي معيار الجمال من عدمه عندهم ، وقد أغفلها النّحاة و لم يتناولوها لاشتغالهم بالبحث في باب المخارج والصّفات، ولم يتناولها المتكلّمةُ ولا أهلُ الصُّرفة أيضا، لاعتقاد أكثرهم بأن الله صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن، "وذلك لأن المتكلّمين وإن صنّفوا في الأصوات وأحكامها وحقيقة الكلام ماهو، فإنَّهم لم يُبيّنوا مخارج الحروف وانقسام أصنافها وأحكام مجهورها ومهموسها وشديدها ورخوها، وأصحاب النحو وإن أحكموا بيان ذلك فلم يذكروا ما أوضحه المتكلّمون الذي هو الأصل والأس، وأهل نقد الكلام – البلاغة – فلم يتعرّضوا لشيء من جميع ذلك وإن كان كلامهم كالفرع عليه"[37].

وقد أجمع البلاغيّون على أن التّنافر هو مايعتري الكلمةَ المفردة أو الكلام المؤلف من ثِقَلٍ يُشكّل عِبئاً على الكلام، لأنه يجب بسبب هذا الثقل زيادة جهد عضلي إضافيٍ على اللسان، وقد كان الجاحظُ من أوائل من تنبه لهذه المسألة لمّا جعل من اقتران الحُروف مدخلاً للبحث فيها، والوقوف على كُنهها، فقد تعرَّض للحروف عند ائتلافها في اللفظة وما ينجم عنه من التنافر، كالجيم فإنها لا تقترن بالشين وذلك لاتحاد المخرج أو تقاربها.

أمّا التلاؤم فهو تعديلُ الحروف في التأليف، وتقريب بعضها من بعض وهو أحدُ شروط البلاغة، لأن الكلام لا تتحقق فيه البلاغة إذا تنافرت حروفُه، لأنه يستثقل على اللسان والأذن معا، ومن فوائد التّلاؤم سهولة الكلام أثناء النطق، وحسنه في السّمع، وتقبُّل النفس لمعناه لما يردُ عليها من جماليات الصّورة والدلالة.

2- تقسيم صفات الحروف عند البلاغيين: تُلمح هذه الصفات عند البلاغيين في تنافر الحروف أو انسجامها و تلائمها من عدمه، حيث جعل البلاغيّون التنافر قسمين هما:

أ – التنافر في اللفظ المفرد.

ب – التنافر في الكلام المؤلف .

أولا: التنافر في اللفظ المفرد: هو الذي يوجد في المفردة الواحدة، فتُستثقل في النُّطق وينفرُ منها السامع لثقل وقعها على الأذن، كما أنها تعسر في النطق على المتكلم، ويمثل البلاغيون في هذا بقول أحد الأعراب لما سُئل عن ناقته فقال: تركتها ترعى الهعخع، ولا شك أن هذه المفردة مُستثقلة بسبب خُلُوِّها من مميّزات الكلام الجيّد، ولأن تحقّق فصاحة الكلمة يرتهن إلى استعمالات العرب الفصحاء، حيث تكون هذه الكلمة قد حظيت بالقبول ودارت على منطقهم، وألفتها ألسنتهم، ويتحقق ذلك بخلوِّ المفردة من ستة أشياء هي[38]:

أ – تنافر الحروف: كلفظة العخعخ أو الهعخع، وهو نبات معروفٌ عند العرب، ويرجع استثقال النطق بهذه الكلمة لتقارب مخرج أصوات الكلمة واشتراكه وهو الحلق .

ب – مخالفة الوضع: أي أن لا تكون المفردة مبذولة وممتهنة فيقفز المتكلم لاستعمال المفردة عن أصل وضعها فتستعمل في شيء مستقبح.

ج – خُلُوُّه من الغرابة ووحشي الكلام و مبهومه بخلاف الكلام المألوف لدى العرب، وذلك نحو الاسفنط وهو الخمر، والفدوكس للدّلالة على الأسد، لأن استعمال مثل هذه المفردات يشتّت الذهن ، ولا يُدرك معناه إلا بزيادة بحث وتأمل في كتب اللغة.

د – أن لا يتوالى في الكلمة أكثر من حركتين يحدث بسببها ثقل.

هـ - أن لا يكون متناهيا في كثرة الحروف بلا زيادة معنى نحو "خندريس"، والذي هو بخلاف قولهم "اخشوشن" الذي يُقصد به الزيادة في الخشن، أو قلة الحروف المخلة بالمعنى، ولذلك تمحَّل العرب الفعل الثلاثي وتوخَّوْهُ كمرتكز في دراستهم، وذلك لخلوّه من الفضلة في الحروف.

و- عدم استعمال اللفظ المشترك مطلقا دون تقييد، فبعض الألفاظ التي تُستعمل في التّضاد تحتاج لقرينة تبيّن وجهتها ودلالتها كالتعزير فإنه يحتمل الإهانة والإكرام، ولذلك فهو يحتاج

لقرينة نحو قولنا لقيت فلانا فعزرته ونصرته، فلفظ نصرته يقذف بلُبِّ السّامع لاستحسان الموقف.

ولمّا كانت الحُروف ممثلة ومحصورة في مادّة حروفها وصورة صياغتها ودلالة معناها، فإن " عيبها إما في مادّتها وهو التّنافر وإما في صيغتها وهو مخالفة الوضع وإمّا في دلالتها على معناها وهو الغرابة "[39].

وقد قسّم البلاغيون هذا التنافر في اللفظ المفرد إلى شديد وخفيف :

أ – تنافر شديد: وهو ناجم عن الثقل الشديد الذي يلمح عند النطق بالكلمة، حيث أرجع البلاغيون سبب هذا التعذر إلى تقارب المخارج في الكلمة الواحدة، نحو قول أحد الأعراب: الهعخع أو العخعخ، ومرد هذا الاستثقال في هذه الكلمة كون مادة هذه الحروف حلقية، فيعسر على الناطق التلفّظ بها.

ب– تنافر خفيف: وهو دون الأول في الثِّقل وصعوبة الأداء والاستهجان، وقد جاء منه على ألسنة بعض الشعراء والبلغاء كقول امريء القيس :

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى العُلاَ * تَضِلُّ العِقَاصُ فِي مُثَنًّى وَمُرْسَلِ**[40]

حيث أرجع البلاغيون هذا الاستثقال في كلمة مستشزرات إلى الصّفات التي اكتست هذه الكلمة حيث إن عسر النّطق بها لا يرجع لتقارب المخارج، وإنما لتضارب وتباين الصّفات المؤلّفة لها، فتوسّط صوتُ الشّين للزاي والتاء، نجم عنه ثقلٌ راجع إلى كون صوت الشين المهموس الرّخو جاء بعد التّاء الشّديدة الهمس، ليصطدم بصوت الزاي المجهور، فتعذّر هذا التوثّب من الصّوت المهموس الضعيف إلى المهموس المتوسط فالمجهور القوي .

ثانيا : التّنافر في الكلام المركب: الكلام الفصيح عند علماء البلاغة ما كان "سهل اللفظ، واضح المعنى جيّد السّبك، متلائم الكلمات فصيح المفردات غير مستكره ولا ممجوج، ولا متكلّف ولا مخالف لقواعد العرب في نحوها وصرفها وغير خارج عن الوضع العربي في مفرداته وتراكيبه، وليس في كلماته تنافر، وليس فيه تعقيد لفظي ولا معنوي "[41].

ويُقصد بالتّنافر في الكلام المركب عند البلاغيين ذلك الثّقل الذي يعتري المتكلّم في المستوى الإفرادي، حيث يُلمح هذا الثّقل في الأداء الصوتي لدى الباث، فيجنحُ المتكلم أثناء كلامه إلى زيادة التركيز من أجل تخطّي عتبة السُّقوط في المستنقع الصوتي – إن صح التعبير-. وممّا يجب الإشارة إليه أنَّ هذه المفردات المُكوِّنة للسلسلة الكلامية إن نُطقت مستقلة فإنها تمتاز بالفصاحة والسّلاسة، فهي بعيدةٌ كل البعد عن الغرابة ووحشي الكلام ولو تقاربت المخارج، ولتحقُّق الفصاحة في التركيب يجب أن يسلم من خمسة أشياء هي[42]:

أ– سلامة المفردات المكوِّنة للسّلسلة الكلامية من العيوب السِّتة المتقدمة الذكر في فصاحة المفرد.

ب– أن يسلم من ضعف التأليف وهو الخروج عن قواعد اللغة العربية نحو قول الشاعر:

جَزى رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بنِ حاتِمٍ* جَزاءَ الكِلابِ العاوِياتِ وَقَد فَعَل**[43]

فالشّاعر خالف القياس في إعادة الضمير في ربّه إلى عدي وهو متأخر لفظا ومعنى، والقاعدة العربية أن يعود الضّمير على ما قبله أو بعده لفظا لا معنى.

ج – أن يسلم الكلام من التنافر الذي قد ينجم عن تجاور المفردات، فقد تكون هذه المفردة سليمة حين انفرادها ولكن تُحدِث ثقلا عند التركيب، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ*** وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَربٍ قَبْرُ[44]

حيث يندرج هذا البيت من الشّعر عند البلاغيين ووفقا لتقسيماتهم في الكلام المركب إلى النّوع المتَّسم بالتّنافر الشّديد الناجم عن التّقارب الشّديد للأصوات المكوِّنة لهذا البيت الشّعري، من حيث المخارج والصفات، مما نجم عنه تداخل وتشابه و تشاكل، فهو لا يمكن إنشاده ثلاث مرات متواليات إلا ويقع منشده في الخطأ .

وقد يعتري السّلسلة الكلامية تنافر خفيف مردّه إلى ظاهرة التّكرار والتّشابه في المخرج كما يرى البلاغيون في قول أبي تمام يمدح موسى بن إبراهيم الرافقي:

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَالْوَرَى * مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي**[45]

فالشاعر باستعماله لتكرار أمدحه ولمته أدّى إلى تقويض صرح البلاغة والفصاحة، مما أدى إلى الثقل النطقي والسّماعي معا، هذا بالإضافة إلى اشتمال مفردة أمدحه على ثلاثة حروف حلقية هي: الهمزة والحاء والهاء، مما يزيد النطق عسرا و استثقالا.

ومن المرتكزات التي اتكأ عليها البلاغيون في الوقوف على كنه الفصاحة ظاهرتي الإذلاق والإصمات، واللتان تعدان أداة إجرائية لمعرفة الفصيح من الدّخيل، والعربي من العجمي.

تعريف الإذلاق :

لغة: حدّ اللسان، كما تأتي بمعنى طرف الشيء وحده، وسميت المذلقة لخروجها من حد اللسان أي من طرفه، وهو ستة أحرف اللام والراء والنون والفاء والباء والميم وما سواها من الحروف لمصمتة[46].

اصطلاحا:الذلاقة النطق بطرف أسلة اللسان والشفتين .

تعريف الإصمات:

لغة: من مادة صمت يصمت صمتا وصمتا وصموتا وصماتا أي:أطال السكوت[47].

اصطلاحا: الإصمات المصمت من الأصوات ما لاجوف له ويكون ثقيلا، وسميت الأصوات المصمتة لثقلها على اللسان،[48] وحروفه ثلاثة وعشرون حرفا، أي ماعدا المذلقة .

فائدة الإذلاق و الإصمات :

ل ا شك أن لهتين الصفتين فائدة كبيرة في الوقوف على الفصاحة من عدمها، وغاية العربي قديما الإفهام "فإن كل عارف بأسرار الكلام من كل لغة من اللغات يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع"[25]، كما أنها تعتبر أداة إجرائية و مسبارا للدخيل في اللغة العربية، فاللسان العربي مفرداته لا تخلو من حرف على الأقل من الحروف الشفوية أو الذلقية، ولذلك فإذا وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من الحروف الذلقية أو الشفوية ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان فما فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب ، ومما يجب الإشارة إليه أن صفتي الإذلاق و الإصمات ليستا كغيرهما من الصفات التي تطرق إليها النحاة والمجوّد ون، وذلك لأن هاتين الصّفتين لا تتضمنان دلالة صوتية، كالجهر والهمس وغيرها من الصّفات، وذلك لأن متعلَّق هاتين الصفتين لا يعدو الحديث عن مكان حدوث الصوت بالنسبة للذلاقة، والوظيفة الصّرفية المتعلقة ببنية الكلمة بالنسبة للإصمات، ولذلك فإنه "لا يخفى على الدارسين أن صفتي الذَّلاقة والإصمات ليستا من الصّفات التي لها دلالة صوتية، وإنما هما من الصّفات الإضافية والتي تتعلق بنسبة الحروف إلى مخرجها أو وظيفتها الصرفية"[49].

كما أن هاتين الصّفتين تُعدّان ركيزة للتوصل إلى الفصاحة والبلاغة، اللتان تُعدّان دَيْدَن العرب وصنعتهم، و بهما يُسفران عن مكنونات صدورهم و خوالج أنفسهم، ولا يتم لهم ذلك إلا إذا تمكنوا من الحياد والميل عن مواطن العيّ من الكلام وقوادحه، وما "سُمّي الكلام الفصيح فصيحا كما أنهم سموه بيانا إلا لإعرابه عما عبر به عنه وإظهاره له إظهارا جليا، وروي عن النبي أنه قال أنا أفصح العرب بيد أني من قريش"[50].

وبناءً على هذا فقد رأى العرب أن المفردة لا يتسنى لها رونق و لا تتصف بفصاحة إلا إذا اشتملت على حرف من حروف الذلاقة (فر من لب)، كما أن كل كلمة خلت من هذه الحروف السّتة فهي مستهجنة دخيلة على اللسان العربي، نحو كلمة عسجد وعسطوس، وعلى هذا التوجه المتمثل في التكشف عن معايير الفصاحة سار البلاغيون للمحافظة على الصّنعة اللفظية وسلامتها من لدن الجاحظ والآمدي إلى ابن سنان الخفاجي الذي أشار إلى عظيم أعمالهم، وجسيم قدرهم[51] .

إن خلو الكلمة من الحروف الذلقية يجعلها ثقيلة على اللسان ، ومائلة نحو الوحشي من الكلام، ومتسمة بالغرابة والضبابية وثقيلة حتى على المتلقي "وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصنا أو فننا أحسن من تسميته عسلوجا، وأن أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط في السمع"[52].

والمتأمل في استحسان ابن سنان للغصن بدلا من العسلوج، وأغصان البان من عساليج الشوحط أن المفارقة بين المفردات صنعتها حروف الذلاقة، فخلو عساليج الشوحط من الحروف الذلقية باستثناء اللام فقط، هو بخلاف كلمة أغصان البان المشتملة على ثلاثة أصوات ذلقية وهي: النون والباء واللام، وقد عدّ ابن الأثير استعمال الناظم للوحشي من الكلام أشد شناعة من الناثر لأنه يقصف صرح الفصاحة والبيان، بل إن استعمال بعض الحروف والتعويل عليها يذهب بذهن المتلقي إلى التشرد، ويشتت تصوره، ويذهب ببيانه ولذلك فإنه "يجب على الناظم والناثر أن يجتنبا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف كالثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين فإن في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الحروف المشار إليها"[53].

ومن خلال هذه الاستقراءات فإن الكلمة العربية كلما قلّت فيها حروف الذلاقة تولّت وجهتها نحو الغموض والاستثقال، وتزداد غرابة وشناعة عند البلاغيين إذا ما خلت تماما من الحروف الذلقية كقول أبي تمام في وصف صهيل الخيل:

وآخِذٌ طَعْمَ السِّقَاءِ سَامِطٌ*** وَخَاثِرٌ عُجَالِطٍ عُكَالِط[54]

فالمتأمل في البيت لا يخفى عليه مايعتريه عند النطق من الثّقل والغرابة وعدم الحُسن والطّلاوة، لخلوّ البيت تقريبا من الأصوات الذلقية.

وممن كان سباقا للحديث عن الفصاحة ومتطلباتها الجاحظ وذلك بعملية استقرائية لخُطب العرب وأشعارهم، حيث وقف على صفات الحروف من خلال فصاحة المتكلم وفصاحة الحروف والكلمة والكلام، وكان يهدف إلى المحافظة على اللسان العربي من أن يشوبه زيغ أو تحريف، والوصول بالمتكلم باللسان العربي إلى درجة مرموقة من الفصاحة والبلاغة والبيان، ولا ريب أن البصمة الأولى للفصاحة تتأتى من المستوى اللساني الأول وهو المستوى الصوتي، المتمثل عند الجاحظ بفصاحة الحروف التي تُكَوِّن الكلمة المفردة، ولكي تؤدي وظيفتها على أكمل وجه يجب

أن تتّسم بالسّهولة والتّناسق والتّناغم لينتج عن ذلك حُسن التّجاور والتواشُج في السلسلة الكلامية "فأما في اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين،بتقديم ولا تأخير"[55].

و لأن اقتران هذه الحروف حسبه يدفع بالمفردة إلى الاصطباغ بصبغة الاستهجان والاستثقال على السامع، وخلوها من الحروف الذلقية يكسب المفردة بعدا عن السلاسة في النطق والسهولة في الأداء والسلامة في الاستقبال.

أما بالنسبة للمستوى الصّرفي عند الجاحظ فقد اشترط خُلُوّ الكلمة من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس، وخلوها من الابتذال والسّوقة والوحشية، وذلك مراعاة للمتلقي الذي يتحقق عنده الإفهام من خلال السهولة اللفظية المتأتية من العبارات المأنوسة "فلا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا وكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا "[56].

وقد تناول ابن الأثير هذه المسألة أيضا وأشار إلى ما ينجم عنها من ثقل في النطق إذا خلت الكلمة من حروف الذلاقة، حيث يصعب النطق بها، ويستثقل اللسان من لفظها، وقد ذهب إلى المقارنة بين :البعاق والمزنة والديمة وأشار أن "هذه اللفظات الثلاث من صفات المطر، وهي تدل على معنى واحد ومع ذلك ترى أن لفظتي المزنة والديمة وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال، وترى لفظ البعاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل"[57].

أما بالنسبة للمستوى التركيبي وهو فصاحة الكلام عند الجاحظ فينبغي أن يسلم من ضعف التأليف والتعقيد، واللبس والغموض الذي تتأتى مطارحه من المرتكزات التي وضعها في فصاحة الأصوات والكلمات، والذي ينجم عنه بالطبع سهولة الكلام على اللسان، وحسن الوقع في الآذان، ولا ريب أن هذا يتحقق بخلو المفردات من التنافر، وتباعد الحروف من تقارب المخارج، فقد تكون الكلمة مستقلة بمفردها مأنوسة، غير أنه قد يعتريها في التراتيبة الكلامية انتكاس في أداء الوظيفة التعبيرية ومن ذلك قول الشاعر:

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةَ الجَنْدَلِ اسْجَعِي***فَأَنْتِ بِمَرْأَى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ[58].

فالشّاعر هنا حاد عن معالم الفصاحة والبلاغة والبيان لتوالي الإضافات، فقد أضاف الحمامة إلى الجرعا، والجرعا إلى الحومة، والحومة إلى الجندل، وهكذا حاد عن الكلام المأنوس إلى اللبس والغموض، فضلا عمّا ينتج لدى السامع من استثقالٍ ناجمٍ عن الحروف المتقاربة في المخارج والصفات.

أما الفصاحة عند عبد القاهر الجرجاني فإنه علقها بالنظم الذي يراعى فيه الكلمة وفق السلسلة الكلامية حيث "ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يكون بها العلم إخبارا أو نهيا أو استخبارا أو تعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها ألا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة"[59].

فالألفاظ الفصيحة عند الجرجاني لا يستقيم شأنها و يتلئب أمرها إلا إذا تساوقت مع المعنى، وكانت مؤدية له، ولهذا عاب على من جعل الفصاحة مقتصرة على اللفظ فقط، فاللفظ لا مزية فيه حتى تظهر معالمه من خلال تأدية معناه، بخلاف ماذهب إليه من سبقه من البلاغيين في جعل الفصاحة مقترنة مع اللفظ المفرد ، ويُرافع الجرجاني عن وجهته البلاغية ومكمن الفصاحة من خلال كلمة ابلعي في الآية:﴿ وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[60] ويرى أن لا مزية لهذه المفردة منفردة، وكيف اكتست جمالا وفصاحة وبلاغة حينما وظفت في هذا السياق الناتج عن النظم والترتيب والتأليف الذي هو أساس النظم عنده " وهل تجد أحدًا يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلاَّ وهو يعتَبِر مكانها من النظم، وحسنَ مُلاءَمة معناها لمعنى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟"[61] .

وقد ذهب الجرجاني في التكشف عن الفصاحة في اللسان العربي إلى أنها قد تكون معنوية، ولو أن القارئ أسقط حرف الذلاقة (اللام) من الآية (هم العدو) " لرأيت الفصاحة قد ذهبت عنها بأسرها"[62].

ولهذا قسم الجرجاني الفصاحة إلى ما هو متعلق بالألفاظ ومنها ماهو متعلق بالنظم،وجعل المتعلق بالألفاظ متمثلا في "الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة"[63].

وبما أن حروف الذّلاقة تُكسب اللفظ خِفّة وسرعة في الأداء فإن كثيرا من الأمثلة التي يُوردها الجرجاني نجدها مشتملة على الأصوات الذّلقية، وإن كان هو يركز على العلاقات النحوية والنظم فإن أمثلته لا تخلو من استفاضة في الحروف الذّلقية كإعجابه بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[64] ، وقول الشاعر: فنام ليلي وتجلى همي فقد اكتسب لفظ (نام ولفظ الليل مذاقة لم تكن لها)[65] ،وذلك لسهولة النّطق بهذه المفردات وسلاستها وخفتها على اللسان.

خاتمة:

من خلال هذا البحث نستشف ونستخلص عدة نتائج أهمها:

* الثراء الزاخر للتراث العربي الذي يمكنه من مطاولة غيره من تراث الحضارات الأخرى.

* علاقة الأصوات ودلالتها ظاهرة متجذرة عند العرب على غرار ما أسلفناه عند ابن جني.

* فاعلية صفة الإذلاق في النطق وتيسيره لتمتعها بملامح نطقية لا تتطلب جهدا عضليا كبيرا في النطق ، بخلاف التراكمية الصوتية للأصوات المصمتة .

* جهود العرب وغيرهم من المسلمين في التكشف عن الدراسة الصوتية في اللسان العربي.

* أهمية المستوى الصوتي لدى التراثيين العرب والذي نال حصة الأسد في أبحاثهم.

* ولوج باب الفونولوجيا من قبل ابن جني إعتمادا على صفات الحروف وكيفية ملا ئمتها للمعاني المقصودة .

* المفارقة القراءاتية بين النحويين والبلاغيين في اكتناه التكشف عن الظواهر الصوتية ، حيث انصب عمل النحويين على تبيان المعالم الصوتية ، واستثمار البلاغيين لهذه النتائج في تشييد صرح البلاغة.

وفي الأخير نسعى أن يكون هذا العمل زادا في السير إلى الله، وعتادا يوم الوقوف بين يديه ، ونأمل أن نكون قد طرقنا باب الإسفار في تبيان وتوطيد الطريق للوقوف على بعض من المفارقة في الدراسة الصوتية بين النحاة والبلاغيين.

الهوامش:

القرآن الكريم برواية حفص.

1. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي مخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة ،إيران، ط1986،01،ج01 ،ص57.
2. السّيرفي، أخبار النحويين البصريين، تحقيق طه مُحَمَّد الزيتي، مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، ملتزم الطبع والنشر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ،مصر، ط1955،1، ص12.
3. الخليل بن أحمد الفراهيدي، المصدر السابق، ج01،ص 57.

*- سيبويه:أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحاري، الفارسي ثم البصري، إمام النحاة، وحجة العرب، ولد عام(148هـ) تلميذ الخليل، صاحب الكتاب الملقب بقرآن النحو،توفي عام(180هـ) .

4. أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، القسم الأول ص 189.
5. سيبويه، الكتاب، تح عبد السلام هارون، دار الرفاعي، الرياض، ط02، 1982،،ج04 ،ص 431.
6. المصدر نفسه ،ج04 ص 431.
7. المصدر نفسه ،ج04 ص 431.
8. المصدر نفسه، ج4، ص 434.
9. المصدر نفسه ،ج04، ص 434.
10. المصدر نفسه ج04، ص434.
11. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني، سرّ صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دط، ص 61.
12. ابن جني، المصدر نفسه، ص 61.
13. ابن جني، المصدر نفسه، ص61.
14. سيبويه، المصدر السابق، ج4، ص 436.
15. سيبويه، المصدر نفسه، ج4، ص128.
16. ابن جني، المصدر السّابق ، ص 62.
17. ينظر ابن جني، المصدر نفسه، ص62.
18. ينظر سيبويه، المصدر السابق، ج04، ص130.
19. سيبويه، المصدر نفسه، ج04، ص436.
20. سيبويه، المصدر نفسه، ج04، ص432.
21. ابن جنّي، المصدر السابق، ص64.
22. سيبويه، المصدر السابق، ج04، ص435
23. ابن جني، المصدر السابق، ص63.
24. سيبويه، المصدر السابق، ج04، 448.
25. سيبويه، المصدر نفسه ،ج04، ص 435.
26. ابن عصفور الممتع في التصريف، تحقيق فخر الدّين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، ط01، 1996،ص429.
27. سيبويه، المصدر السابق، 04،ص448.
28. سيبويه، المصدر نفسه، ص466.
29. سيبويه، المصدر نفسه، ص464.
30. علاء جبر مُحَمَّد، المدارس الصوتية عند العرب، النشأة و التطور، دط، ص 52.
31. المبرّد، المقتضب، تحقيق عبد الخالق عظيمة، مطبعة دار التحرير، القاهرة، ج1، ص194.
32. الحافظ بن الجزري، النشر في القراءات العشر، تصحيح ومراجعة مُحَمَّد علي الضّباع، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ج01 ،ص 160.

*- ابن جني:أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، قرأ على شيخه أبي علي الفارسي، نبغ في علم وظائف الأصوات وأسّس كيانه، توفي في (392هـ).

33. ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق مُحَمَّد علي النجار، المكتبة العلمية،ج02 ، ص 157.
34. المصدر نفسه ،ج02، ص 158.
35. سورة الرحمن ، الآية:66.
36. أبو هلال العسكري، الصّناعتين، تحقيق علي مُحَمَّد البجاوي، و مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت، لبنان، د ط ،ص64.
37. ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1982. ص15.
38. ينظر كتاب علم الأدب، لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1887، ج01، ص55.
39. عبد العزيز قلقيلة، البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي، ط03، ص21.

40. امرؤ القيس، حُندُج بن حُجر،ديوان امرئ القيس، ضبط وتصحيح مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان، ط05،ص115.
41. عبد الرحمان حسن جبنكه الميداني، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق ،ط01، 1996، ، ج01، ص116.
42. ينظر كتاب علم الأدب،لويس شيخو اليسوعي، المرجع السّابق،ج01، ص55.
43. ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط03، ص161.
44. الجاحظ،عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي، ط07-1998م، ج01، ص65.
45. أبو تمام الطائي، ديوان أبي تمام الطائي، تفسير الألفاظ محي الدين خياط، طبع بمناظرة والتزام مُحَمَّد جمال، نظارة المعارف العمومية الجليلة، دط، ص129.
46. الخليل بن أحمد الفراهيدي، المصدر السّابق، ج01، ص 51.
47. ينظر ابن منظور، أبوا لفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر ج 04 ،ص 89.
48. ابن الأثير، المثل السائر، تقديم وتعليق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ،دط، ص95.
49. الخليل بن أحمد الفراهيدي، المصدر السابق،ج01،ص54.
50. غانم قدوري، الشرح الوجيز على المقدمة الجزرية، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، ط01، ص48.
51. يُنظر ابن سنان الخفاجي، المصدر السّابق، ص59.
52. المصدر نفسه،ص63.
53. المصدر نفسه ،ص65.
54. المصدر نفسه، ص68.
55. الجاحظ، المصدر السّابق،ج01، ص69.
56. الجاحظ، المصدر نفسه، ص69.
57. ابن الأثير، المصدر السّابق، ص 91.
58. لويس شيخو اليسوعي، المرجع السّابق ،ص58.
59. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،وحدة الرغاية ، الجزائر1991، ص39.
60. سورة هود، الآية 44.
61. الجرجاني، عبد القاهر، المصدر السابق، ص81.
62. المصدر نفسه، ص ص404.
63. المصدر نفسه، ص 430.
64. سورة يونس، الآية 67.
65. ينظر الجرجاني، المصدر السابق، ص 463.